تاسيتي (أرض القوس) بلاد الكوشيين والنوبيين رماة الحدق: محاولة لاستقصاء دور المقاتل السوداني القديم في مصر حتى الفتح العربي

نعمات عمر عبد الجبار

Abstract: This study aims at casting light on one of the important aspects of the ancient Sudanese personalities, as brave soldiers, from ancient times till the Arab conquest of Egypt. The study tries to trace the role of the Cushite soldiers in the Egyptian political and military affairs since the struggle for the unification of Egypt and the rise of the Pharoahs, and their role in maintaining that unity till the first half of the last millennium BC. The study also explains how the Cushites participated in the protection of Egypt against foreign invaders such as the Libyans, the Assyrians and the Romans. The role of some prominent Cushite leaders in the political and military affairs and the conflicts between the ruling dynasties is also discussed, such as the role of "May Ho Bry" during the reign of Queen Hatshabsut, the role of the family of "Horemheb" during the reign of Thutmosis IV, and the role of "Panehsi" in the period of Ramses XI.

مقدمة

القوس هو الرمز التقليدي للنوبة السفلى. فقد أطلق المصريون القدماء على جيرانهم في الجنوب في العصور التي سبقت توحيد مصر اسم "تاسيتو" وعلى أرضهم "تاسيتي" بمعنى أرض الأقواس. وفي الحقيقة، إن سكان شمال السودان القدماء امتازوا منذ القدم بمهارتهم في استعمال الأقواس في الإغارة على حدود مصر الجنوبية. وكثيراً ما قامت بعض جماعاتهم بمهاجمة الحدود الجنوبية لمصر،

وكذا البعثات العديدة للمصريين فيما وراء الشلال الأول.[١] ولا يخفى ما في هذا الاسم من اعتراف وشهادة بأن السودانيين القدماء كانوا أهل حرب، وأن أهم ما تميزوا به أنهم كانوا رماة أقواس بالدرجة الأولى. لقد ذكر هذا الاسم في نصوص الأهرامات عندما اقترن بالإله ديدون كسيد لـ"تاسيتي"،[٢] كما ظهر في السطر السابع من النقش رقم (٤) للملك تهارقا (٦٩٠-٦٦٤ ق.م).[٣] وقد استمر مستعملاً حتى آخر الفترة النبتية، حيث وجد في نقش الملك تانوت أماني (٦٦٤-٦٥٣ ق.م).[٤] كذلك ورد عدة مرات منقوشاً على كؤوس وضعت كودائع أساس عند أركان هرم كل من الملك أسبلتا[٥] والملك نستاسن (٣٣٥-٣١٠ ق.م).[٦] وسنشير هنا إلى رماة السهام بـ"الكوشيين"، وهو الاسم الذي ظهر لأول مرة في عهد الأسرة الثانية عشرة في المملكة المصرية الوسطى واستمر حتى العصر المروي. كما يجب أن نذكر أن شهرتهم كرماة أقواس لا يخطئون هدفهم، استمرت حتى الفتح العربي لمصر، حيث شهد لهم قادة العرب بذلك فسموهم "رماة الحدق".

(١) محمد إبراهيم بكر (١٩٦٨)، المدخل إلى تاريخ السودان القديم. القاهرة: المطبعة الفنية الحديثة، ص ٢٣-٢٤.

(٢) J.A. Arkell (1961) *A History of the Sudan from the Earliest Times to 1821.* London: The Athlone Press, pp.104-105.

(٣) M.F.L. Macadam (1949) *The Temples of Kawa,* Vol. 1. London: Oxford University Press, p. 15.

(٤) E.A.Wallis Budge (1907) *The Egyptian Sudan,* Vol.11. London: Dryden House, p. 79.

(٥) D. Dunham (1955) *The Royal Cemeteries of Kush,* Vo1.11, Nuri. Boston: Museum of Fine Art, p. 97, fig.76, (Nu.8).

(٦) E.A.Wallis Budge, *op.cit*., pp. 146-147.

علاقة السودانيين بمصر خلال الممالك المصرية الثلاث (القديمة والوسطى والحديثة): دور السودانيين في عصر المملكة المصرية القديمة

في محاولة منا لتتبع هذه الشهرة من جذورها كان لابد لنا من دراستها من خلال ربطها بالتاريخ المصري الذي ارتبط به تاريخ السودان في العصور القديمة والوسطى والحديثة.

تشير الأدلة الآثارية إلى أن قدماء السودانيين ربما عملوا كجنود مرتزقة منذ عهد الدولة المصرية القديمة، وهذا هو الوقت الذي تزامن مع وصول حضارة المجموعة (أ) في النوبة السفلى إلى أوج عظمتها. فقد كشفت بعثة أمريكية عام ١٩٦٤ في بلدة القسطل في النوبة السفلى عن مقابر ضخمة لملوك المجموعة الحضارية (أ)، ووضحت أن هذه المجموعة كانت تتمتع بحكم موحَّد، وبنظام له كل مقومات الدولة من تنظيم في الفترة ما بين (٣٥٠٠–٣١٠٠ ق.م)، وكان لها شخصيات قيادية وعلامات ورموز تدل على السلطات الملكية.[٧] دفعت هذه المعلومات بعالم الآثار وليام بروس لطرح نظريته عن وجود مملكة بالقسطل يعود تاريخها إلى حقبة المجموعة الحضارية (أ) المتأخرة وعصر ما قبل الأسرات، وقد اقترح لها اسم "مملكة بلاد القوس".[٨]

بلغت حضارة المجموعة (أ) أوج عظمتها في بداية الأسرة المصرية الأولى، وربما كانت السلع المصرية التي دخلت إلى بلاد السودان، كما يرى تريقر،[٩] عبارة عن مكافآت أو أجور الجنود المرتزقة الذين عملوا في الجيش المصري. وليس مستبعداً أن

(٧) أحمد محمد علي الحاكم وشارلس بونيه (١٩٩٧)، كرمة مملكة النوبة، تراث أفريقي من عهد الفراعنة. الخرطوم: دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع ، ص ٦٩.

(٨) B. Williams (1980) "The Lost Pharaohs of Nubia", *Archaeology,* No. 33, p. 19.

(٩) B. Trigger (1976) *Nubia Under the Pharaohs*. London: Thames and Hudson, P. 44 .

تكون الصولجانات التي وجدت في الجبانة (١٣٧) في النوبة السفلى عبارة عن هدايا لزعيم نوبي إشادة بالدور الذي لعبه هو ورجاله في الحرب التي قادت إلى توحيد مصر. وإذا صح افتراض تريقر بأن تلك السلع ربما كانت مكافآت للجنود الكوشيين، فإنها تكون أول إشارة لمشاركة الكوشيين كجنود في الصراع الذي كان دائراً من أجل توحيد الوجهين القبلي والبحري.

إن من أقدم الآثار التي تضمنت إشارة إلى القوس، لوحة الملك حورعها (حورص المحارب)، أول ملوك المملكة المصرية القديمة. وقد فسر هذا التصوير على أنه ربما كان دليلاً على عملية حربية قام بها هذا الملك ضد بلاد النوبة، أو ربما كانت اللوحة تشير خطأً إلى عمل قصد به حماية الحدود المصرية الجنوبية في أسوان.(١٠)

نجد إشارة أخرى لأرض الأقواس في نقش الملك جر (Djer) (٣١٨٢ ق.م) الذي أعقب حورعها. ففي النقش الذي تركه على صخور جبل الشيخ سليمان على الضفة اليسرى للنيل تبدو مركب مطابقة لمراكب الأسرة المصرية الأولى وقد تدلى من مقدمتها حبل علق عليه رجل وتحتها أناس غرقى، وإلى يسار الرجل شكل يمثل مدينتين (انظر الشكل رقم ١) ربما كانت أحداهما مدينة بوهين التي طالما ارتبط ذكرها بالإله حورص. وفي نهاية الطرف الأيسر اسم الملك دجر وتصوير لشخص ربطت يداه إلى الخلف وهو يحمل القوس الدال على بلاد النوبة.(١١)

اختلف المؤرخون في تفسير النقش السابق، إلا أنهم اتفقوا على أن هذا النقش ربما كان دليلاً على غارة مصرية على النوبة في ذلك التاريخ المبكر، وأن الغرض منها ربما كان تحذير أهل السودان من الدخول إلى مصر ونهبها. وعليه يمكن أن نفترض

(١٠) *Ibid*., p. 41.

(١١) A.J. Arkell (1950) "Veria Sudanica", *JEA* 36, pp. 27-29.

أن السودانيين منذ ذلك الوقت كانوا يشكلون خطراً وتهديداً حاول الملوك المصريون الأوائل وضع حد له. في حين يرى آدمز أن النقش السابق يمكن اعتباره دليلاً على الحملات المصرية لجلب الرقيق.[١٢] وإذا أخذنا بهذا الافتراض، فإن هؤلاء الرقيق لابد أن المصريين قد أخذوهم للتجنيد داخل الجيوش المصرية، خاصة وأن هذه الدولة الناشئة كانت قد تنبهت منذ البداية لضرورة حماية حدودها ولجلب خيرات الجنوب. كما سنلاحظ لاحقاً في فترة الأسرة الرابعة أن حملة الملك سنفرو كان الغرض منها الرغبة في الحصول على أكبر عدد ممكن من الجنود النوبيين،[١٣] والتي يرى أمري أنها بدأت بهذه الحملة.[١٤]

بذل ملوك الأسرة السادسة جهداً عظيماً من أجل التوسع في بلاد النوبة، وعُين موظف ليراقب حدود بلاد النوبة وليدرس إمكانية التوسع، وابتكر الملك بيبي الأول (٢٣٤٠-٢٣٢٥ ق.م) وظيفة حارس باب الجنوب الذي ربما كانت زيارة بلاد النوبة أحد أعبائه، وذلك بغرض تجنيد السودانيين للجيش المصري. وقد افتخر أحد هؤلاء الموظفين ويدعى "اوني" (٢٥٠٠-٢٣٤٠ ق.م) بأنه قاد جيشاً يتكون من مناطق واوات وإرتت وبعض الأقاليم الجنوبية مثل كاو التي تقع على ضفتي النهر والميجاو في الصحراء الشرقية.[١٥] مما سبق يبدو لنا بوضوح أن ملوك هذه المملكة أولوا القوة البشرية اهتماماً بالغاً، حيث لجأوا إلى تجنيد السودانيين كجنود مرتزقة، خاصة الميجاو الذين كانوا يمثلون جزءاً كبيراً من الجيش المصري في ذلك الوقت.

(١٢) W.Y. Adams (1984) "The first colonial empire-Egypt in Nubia (3200-1200 B.C)", *CSSH*, Vol. 26, No.1, p. 42.

(١٣) J. Vercoutter (1959) "Ancient Egyptain influence in the Sudan", *SNR,* Vol. XL, p. 10

(١٤) W.B. Emery (1963) "Egypt Exploration Society: Prelimirary Report on the Excavation at Buhen", *Kush,* Vol. XI, p. 120.

(١٥) T. Save-Soderbergh (1941) *Ägypten und Nubien*. Lund, p. 14.

يبدو أيضاً أن ما تميز به الجنود السودانيون في تلك الفترة جعل الملوك المصريين يلجأون إليهم للعمل في الجيش المصري؛ فقد كانوا يكثرون من الاستعانة بهم في أوقات الشدة والحروب. مثلاً خلال الأسرة الخامسة (٢٥٠٠-٢٣٤٠ ق.م) استعان أوني ببعض الفيالق السودانية في قمع ثورات البدو في سيناء. فقد ذكر أنه عندما قامت ثورة البدو في الشمال أوكل إليه الملك مهمة تفريق شملهم. وقد فعل ذلك حتى أقاصي فلسطين، وأن جيشه كان مكوناً من مجموعة من قبائل ذكر منها إرتت ويام والتمحو والميجاو.[١٦] ولاشك أن ما ذكره أوني يدل دلالة قاطعة على أهمية بلاد النوبة وما لها من قوة حربية مشهود بها.

شهدت الفترة الأخيرة من عهد المملكة المصرية القديمة العودة مرة أخرى لتجارة الحيوانات والمنتجات ذات الطبيعة الأفريقية.[١٧] ومُنح حراس باب الجنوب سلطات خاصة[١٨] فصاروا يشرفون على الحملات التجارية. وقد ترك هؤلاء الأمراء نقوشاً في مدافنهم في الجانب الغربي من أسوان، وتعتبر نقوش مقبرة حرخوف من أهمها. توضح نقوش هذا الحاكم الإقليمي نشاط العمليات التجارية مع الجنوب والتي كان يشرف عليها الحكام المقيمون في الحدود الجنوبية. يذكر حرخوف أن زعيم يام أعطاه حرساً خاصاً بغية اتقاء شر مخاطر المرور بين قبائل النوبة السفلى.[١٩] ويبدو أن بلاد النوبة السفلى قد حدثت فيها تطورات سياسية أخرجتها من نطاق السيطرة المصرية،

(١٦) K. Sethe (1903) *Urkunden des ägyptischen Alteums 1: Urkunden des Alten Reiches,* 2nd ed. Leipzig, p. 101.

(١٧) W.Y. Adams, *op. cit.*, p. 43.

(١٨) H. Kees (1961) *Ancient Egypt*. London: Faber and Faber, pp. 311-312.

(١٩) K. Sethe, *op. cit.*, pp. 125-127.

مما حدا بحرخوف ليسلك دروب الصحراء للوصول إلى يام وكرمة.[٢٠] هكذا يبدو واضحاً أن ملوك مصر القديمة أعطوا شهرة أهل النوبة كمحاربين أشاوس قدرها منذ أقدم العصور، وأن سعي ملوك الأسرة المصرية السادسة لتجنيد فرق حربية من أهل الجنوب ليكونوا جيشاً مؤلفاً من عشرات الآلاف يؤكد هذه الحقيقة.[٢١]

بعد وفاة الملك بيبي الأول بدأت القبائل السودانية تتحدى قوة الملك الجديد (بيبي الثاني) فاضطر لحربهم وأرسل لهم سبني الذي كان حارساً لباب الجنوب. عموماً لم تكن العلاقات بين مصر وبلاد النوبة السفلى تسير على وتيرة واحدة؛ فقد ذكر بيبي نخت أمير إلفنتين أنه بناءاً على أمر الملك بيبي الثاني، قام بمهاجمة واوات وإرتت الثائرة وذبح من أهلها خلقاً كثيرين، وقد أحضر رؤساءهم كرهائن، إلى جانب عدد كبير من الأسرى والحيوانات.[٢٢] من الواضح أن حملات الملوك المصريين خلال المملكة المصرية القديمة قد شلت القوى العسكرية للقبائل في منطقة النوبة السفلى بما أخذت من رجال في هذه الحملات، كما أن أخذ رؤسائهم كرهائن كان إجراء يحمل في طياته بث التخويف بين الرعية حتى لا يجرؤا على مهاجمة الحدود المصرية أو القوافل التجارية.

دور الجنود الكوشيين في عصر المملكة المصرية الوسطى

دخلت مصر بعد عهد المملكة المصرية القديمة في فترة الاضمحلال الأولى وانقطعت صلتها ببلاد النوبة وانشغل ملوكها بمشاكلهم الداخلية، ولم يذكر شيء عن القوافل التجارية. إلا أن مصر كانت في حاجة إلى الجنود الكوشيين الذين عملوا

(٢٠) أحمد محمد علي الحاكم وشارلس بونيه، مرجع سابق، ص ٧٣ – ٢٠

(٢١) محمد إبراهيم بكر، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٢٢) J.H. Breasted (1962) *Ancient Records of Egypt,* Vol. 1, New York, paras 355-359.

مع أمراء مصر العليا بإخلاص عظيم، ولعبوا دوراً هاماً أثناء الخلافات بين بيوتات الحكم المتنازعة في مصر العليا حول السلطة. ولما عرفوا به من أمانة وإخلاص، نجد أن أحد أمراء أسيوط، ويدعى "مسحتي"، افتخر بأن له جيشاً نوبياً لا يهاب الردى. وقد أمر هذا الأمير بأن يصنع نموذج لذلك الفيلق الذي تخصص في حمل القوس والضرب بالنبال ليوضع في قبره ويرافقه إلى العالم الآخر.[٢٣] جدير بالذكر أن مثل هذا النموذج يعطي تفاصيل دقيقة عن هؤلاء المحاربين، وكيف كانت هيئاتهم وألوان بشرتهم التي تظهر باللون البني الغامق، وطريقة تصفيف شعرهم ووزراتهم الجلدية.[٢٤]

بالفعل فقد كللت جهود المصريين والنوبيين بقيام المملكة المصرية الوسطى (٢٠٨٠-١٦٤٠ ق.م)، فانتهى بذلك الصراع الذي نشأ من أجل السلطة بغلبة أمراء طيبة بقيادة أسرة انتف التي اتخذت من طيبة عاصمة لها، وتكونت من هؤلاء الحكام الأسرة الحادية عشرة.[٢٥] أما أمنمحات الأول (٢٠٠٠-١٩٧٠ ق.م)، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، فلم يكن من أصل ملكي. ووفقاً لنبوءة الكاهن نفرتي (رئيس كهنة الإلهة باستت)، إن العناية الإلهية ترسل ملكاً من أهل الجنوب يدعى أميني ويولد لسيدة من إقليم تاسيتي، يصلح الحال ويسعد به أهل عصره. وكان اسم أميني الذي بشرت به النبوءة هو الاسم المختصر لاسم أمنمحات،[٢٦] ويؤكد ذلك قول أمنمحات مفتخراً

(٢٣) J. Leclant (1978) "Egypt in Nubia during the Old, Middle and New Kindoms", *Africa in Antiquity1*, NewYork: Brooklyn Museum, p. 63.

(٢٤) H.G. Fischer (1961) "The Nubian mercenaries of Gebelein during the first intermediate period", *Kush,* Vol. 1X, pp. 44-80.

(٢٥) J. Leclant, *op. cit.*, p. 63.

(٢٦) J.H. Breasted (1962), *op. cit.*, p. 251.

بنفسه بإنه ابن لامرأة من تاسيتي، أرض الأقواس.[٢٧] ويزكي أصله من تاسيتي بروز الوجنات في تماثيله وتماثيل أفراد أسرته.[٢٨] ليس هناك أدنى شك في قوة أمنمحات والذي استطاع خلفاؤه من بعده أن يحتفظوا بالعرش من بعده قرابة قرنين كاملين من الزمان (١٩٩١-١٧٨٩ق.م).[٢٩]

تزامن مع المملكة المصرية الوسطى قيام أول دولة سودانية في منطقة الشلال الثالث، حيث ظهرت يام من جديد لكن تحت اسم كوش (كوش الأولى). كان لهذه المملكة جيش قوي ومنظم؛ وقد تطورت هذه المملكة وأصبحت ذات منعة وقوة.[٣٠] لم يكتف ملوك المملكة المصرية الوسطى بالتجارة مع كوش ولا بالحملات التي كانت ترسل من وقت لآخر، بل فكروا في احتلال بلاد النوبة السفلى.[٣١] فقد كانت رغبتهم، إلى جانب فرض السيادة على المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثاني واستغلال ثروة المناجم وبعض المحاصيل الجنوبية الأخرى، إبقاء النوبة السفلى كمنطقة حاجزة بين مصر وكوش.[٣٢] وكانت العلاقات بين البلدين خلال الأسرة الثانية عشرة تتسم بالعداء، وكثيراً ما وجدت نقوش مصرية تصف بلاد كوش بأنها لعينة وخبيثة.[٣٣]

(٢٧) A.H. Gardiner (1961) *Egypt of the Pharaohs.* Oxford: Clorendon Press, p. 126.

(٢٨) عبد العزيز صالح (١٩٩٠)، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ص ١٩١-١٩٢.

(٢٩) محمد بيومي مهران (١٩٩٣)، مصر، الجزء الثاني، منذ قيام الملكية حتى قيام المملكة الحديثة. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص ٣٣٩.

(٣٠) أحمد محمد علي الحاكم وشارلس بونيه، مرجع سابق، ص ٧١-٣٠

(٣١) J. Vercoutter, *op. cit.*, p. 12.

(٣٢) محمد بيومي مهران، مرجع سابق، ٣٩٨. -٣٢

(٣٣) J.H. Breasted (1962), *op. cit.*, paras. 519-661.

خطط الملك أمنمحات، أول ملوك الأسرة الثانية عشرة، لغزو النوبة السفلى وضمها لمصر، غير أنه اغتيل في نفس السنة، وبقي أمر فتح النوبة السفلى لخليفته سنوسرت الأول (١٩٧١–١٩٢٨ ق.م) الذي جاء بفكرة جديدة، وهي تحصين الإقليم بعد فتحه بسلسلة من القلاع الضخمة تنتشر على جانبي النيل، وفي الجزر على طول المنطقة بين الفنتيين وسمنة.(٣٤) وقد أوردت بردية تؤرخ لنهاية الدولة الوسطى، اسم سبع عشرة قلعة تمكن قاردينر من تحديد مواقع معظمها، ولكن القلاع التي بقيت وتم اكتشافها بلغت أربع عشرة قلعة.(٣٥) لا يعرف على وجه الدقة تاريخ بناء هذه القلاع، ولكن يعتقد علماء المصريات أن البناء بدأ في عهد الملك سنوسرت الأول وتواصل في عهد الملك سنوسرت الثاني (١٨٩٧–١٨٧٨ ق.م) وانتهى في عهد سنوسرت الثالث (١٨٧٨–١٨٤٢ ق.م).(٣٦) لا يوجد أدنى شك في أن هذه القلاع قد بنيت لأسباب عسكرية دفاعية، وهي حماية حدود مصر الجنوبية من أن يخترقها الكوشيون أو غيرهم.(٣٧)

لم تقتصر أهمية القلاع على الناحية الدفاعية، بل تعدتها إلى أن صارت نقاطاً للتجارة النيلية، وأحياناً لمساعدة السفن المصرية التجارية على اجتياز الشلالات. فرغم مظاهر العداء، فإن المصريين لم تنقطع علاقتهم التجارية مع كوش. وفي نفس الوقت كانت القلاع تمكن المصريين من وضع أعينهم على تحركات السكان المحليين؛ فقد أثبتت سلسلة الرسائل التي أرسلت من سمنة إلى طيبة، والتي يرجع تاريخها إلى

(٣٤) W.B. Emery (1965) *Egypt in Nubia*. London: Hutchinson, p. 145.

(٣٥) A. Gardiner (1916) "Ancient list of the fortresses of Nubia", *JEA,* Vol. 3, pp. 184-192.

(٣٦) W.B. Emery (1965), *op. cit.*, p. 145.

(٣٧) B.C. Trigger, *op. cit.*, p. 71.

الأسرة الثانية عشرة، أن تحركات السكان كانت تسجل في الحال ويتم التبليغ عنها، بما في ذلك التحركات الصغيرة، لدرجة تتبع آثار أقدام الأهالي في الصحراء.[٣٨] ويرى بعض علماء التاريخ القديم أن إخضاع الكوشيين كان واحداً من أسباب بناء هذه القلاع،[٣٩] وأن أسماءها، مثل "دحر السيتاي" و"إزاحة النبال" و"دحر الإينو" و"دحر المدجاي"،[٤٠] تكشف أنها بنيت خوفاً من عدو مرتقب ينبغي أن يحسب حسابه باعتباره خصماً مهولاً محكم التنظيم، ولابد أن القلاع كانت تمثل التعبير الرمزي الرئيس للقوة المصرية في النوبة السفلى. وربما لم يكن المقصود منها كبح سكان النوبة السفلى، والتي أثبتت الحفريات أن الأسلحة في مدافنهم كانت قليلة جداً، وكانت تتكون من خناجر برونزية أو بلطات، وكلها مصرية الصنع،[٤١] بل أن المعنيين بها في تقديرنا هم أهل مملكة كرمة في النوبة العليا.

يتضح لنا من خلال النقوش التي تركها بعض ملوك الأسرة الثانية عشرة أن العلاقات بين الملكين سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث مع كرمة كانت عدائية ومتوترة. فقد وصلنا من عهد الملك سنوسرت الأول لوح بوهين الذي يصور فيه الإله منتو – إله طيبة – وهو يقدم للملك عشرة من الأسرى، بجانب كل أسير اسم المدينة أو القبيلة التي جاء منها، ويخاطب الإله الملك قائلاً: "لقد وضعت كل الأقطار التي في تا بديت، تحت قدميك".[٤٢] وكان حاكم كوش في مقدمة الأسرى. وقد فسر رايزنر

(٣٨) P.C. Smither (1945) "The Semneh Despatches", *JEA,* Vol. 31, pp. 3-10.

(٣٩) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, p. 46.

(٤٠) وليام ي. آدمز (٢٠٠٥)، النوبة رواق أفريقيا، ترجمة محجوب التجاني محمود، ط٢. القاهرة: شركة ومطبعة الفاطمية أخوان، ص ١٧٩.

(٤١) A.H. Nordstrom (1962) "Excavations and survey in Faras, Argin and Gazira Dabarosa", *Kush*, Vol. X, p. 39.

(٤٢) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, pp. 59-60.

اللوح على أنه يعني أن سنوسرت الأول شن حملة على كوش نتج عنها إخضاع تلك البلاد المشار إليها في النقش، وهي في رأيه نفس الحملة التي يشير إليها نقش أمني أمير بني حسن، والذي يعتبر المصدر الثاني الذي يعود لعهد هذا الملك.(٤٣)

واصل سنوسرت الثالث سياسة العداء التي بدأها جده سنوسرت الأول. فقد ترك نصاً يعود للسنة الثامنة من عهده في سمنة جاء فيه: "الحد الجنوبي الذي أقيم في السنة الثامنة من عهد ملك مصر العليا ومصر السفلى خع كاورع سنوسرت الثالث .... لمنع أي نحسو من عبوره براً أوبحراً بالمراكب أو على ظهر الدواب. يستثنى من ذلك فقط النحسو الذي أتى للتجارة في أيقن (مرقسة) أو الذي أتى في مهمة رسمية؛ هؤلاء تقدم إليهم معاملة حسنة، لكن يمنع منعاً باتاً لأي مركب من بلاد النحسيو عبور سمنة في اتجاه الشمال".(٤٤) وضع هذا النصب التذكاري بعد حملة سنوسرت الثالث الأولى، والتي ربما كانت ليس لإخضاع كوش، ولا للتجسس عليها، وإنما لتثبيت الوجود المصري في النوبة السفلى. والدليل على ذلك هو وضع اللوح – الأمر الدائم – في سمنة أقصى حدود النوبة السفلى. وقد استمرت الدولة المصرية في إرسال الحملات، حيث أرسلت حملتين في السنة الثانية عشرة والسادسة عشرة، وربما في السنة التالية.(٤٥) يشير الملك في الحملة الأخيرة إلى تفاصيل عن نتائجها، مثل سبي النساء والرجال، وحصد المحاصيل وحرقها، وغير ذلك. وفي نفس الوقت يعكس النقش خوف المصريين من الخطر الكوشي. يبدو أن توتر العلاقات كان دافعا قوياً للخوف، لذلك قال تريقر إن خوف المصريين من "أن أسطول كوش الذي يأتي

(٤٣) G.A. Reisner (1923) *Excavations at Kerma, IV,V, HAS* (Second Report). Boston, p. 543.

(٤٤) J.H. Breasted (1962), *op. cit.*, para. 651.

(٤٥) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, p. 75.

بالتجارة إلى مرقسة ربما في يوم من الأيام يأتي وبداخله جيش كوشي".[٤٦] كذلك ربما توهموا أن الملك الكوشي بإمكانه تحريض أهل المجموعة (ج)، سكان النوبة السفلى، ضد المستعمر المصري.[٤٧]

لم يستسلم الكوشيون رغم الحملات التي كان الملك سنوسرت الثالث يرسلها من وقت لآخر ضدهم، واستمرت تلك الحملات حتى عامه السادس عشر دون جدوى. لذلك اضطر أن يظهر قوته للكوشيين مرة أخرى، فذهب على رأس حملة في عامه التاسع عشر، ربما كانت آخر حملاته إلى كوش[٤٨] ويبدو أن الصراع بين المصريين والكوشيين ظل قائماً طوال هذه الفترة، ولم يتمكن المصريون من احتلال كوش أو مد نفوذهم لأبعد من سمنة، أي أن كرمة العاصمة ظلت قائمة بعيدة عن أيديهم، مما يؤكد قوة هذه الدولة وشراسة جنودها المدافعين عنها. ويؤكد أيضاً خوف المصريين من هذه الدولة، تشييدهم لقلاع الشلال الثاني السابقة الذكر لصد أى هجوم محتمل.[٤٩]

شأن غيرهم من الملوك في المملكة المصرية القديمة، فإن أهداف ملوك هذه المملكة لم تقتصرعلى السيطرة على الأراضي الجنوبية والحصول على الثروة المعدنية، بل ربما كانت ترمي إلى تجنيد الكوشيين كمرتزقة. فقد تم تجنيد الميجاو؛ وإلى هؤلاء تنسب القبور التي عرفت بالقبور القبعية (Pan Graves)، وذلك لشكلها المميز. وقد وجدت هذه القبور بالقرب من القلاع المصرية في النوبة السفلى وفي مصر العليا

(٤٦) B.C. Trigger, *op. cit.*, p. 75.

(٤٧) سامية بشير دفع الله (١٩٩٩)، تاريخ الحضارات السودانية منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة. الخرطوم: دار هايل للطباعة والنشر والتغليف، ص ٢٤٧.

(٤٨) J.H. Breasted (1962), *op. cit.*, para. 661.

(٤٩) S. Clark (1916) "Ancient Egyptian fortresses", *JEA,* Vol.3, p. 155.

ومصر السفلى، وربما شمالاً حتى سقارة.[٥٠] وفي تقديرنا أن وجود هؤلاء الجنود ربما يشير إلى احتياج الملوك المصريين لهم لدعم الجيش المصري.[٥١]

بمجئ الأسرة الثالثة عشرة انتهى الحكم الموحد في مصر، وتلت ذلك فترة مليئة بالاضطرابات والفوضى العارمة، عرفت هذه الفترة في التاريخ بفترة الاضمحلال الثانية (الأسرة الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة).[٥٢] وهي الفترة التي بلغت فيها مملكة كرمة قمة مجدها وعظمتها؛ وتدل قرائن الأحوال أن حاكم كرمة كان قوياً، وكان بعض الموظفين المصريين يعملون في خدمته. فقد وصلت حدودها حتى أسوان في حين تراجعت حدود المصريين شمالاً إلى أسوان.[٥٣] هذا، وقد وجد لوح في بوهين، كان النقش الموجود على ذلك اللوح يحكي حياة أحد الرجال المصريين، والذي كان يخدم تحت الحاكم الكوشي الوطني. وقد جاء في ذلك النقش على لسان الرجل المصري: "إنني خادم مطيع لحاكم كوش، ولقد غسلت قدمي في مياه كوش (دليلاً على الولاء) أثناء مرافقة الحاكم ندح (Ndh) وعدت سالماً معافىً لعائلتي". ومثله أيضاً لوح سبدحور الذي وجد أيضاً في بوهين، وهو الآخر يشير إلى رجل مصري كان يخدم تحت حاكم كوش الوطني المستقل.[٥٤] وهكذا فإن تلك النقوش تشير إلى قوة مركز ذلك الحاكم وسيطرته التامة على كوش.

(٥٠) H.J. Fischer, *op. cit.*, pp. 44-80.

(٥١) نعمات عمر عبد الجبار (١٩٨٩)، مظاهر التمصير عند ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، قسم التاريخ، كلية الأداب، جامعة الخرطوم، رسالة ماجستير غير منشورة، ص ١٨.

(٥٢) B. Gunn & A.H. Gardiner (1918) "The expulsion of the Hyksos", *JEA*, Vol. 5, p. 45.

(٥٣) W.B. Emery (1963), *op. cit.*, p. 167.

(٥٤) T. Save-Soderbergh (1949) "The Nubian Kingdom of the Second Intermediate Period", Kush, Vol. 35, p. 50.

وقد جاء في أحد ألواح كاموسي (آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة)، والذي عثرعليه في طيبة،[٥٥] أن المنطقة التي كانت متحدة في السابق تقسمت إلى ثلاث ممالك مستقلة. فمصر السفلى كانت تحت حكم الهكسوس الذين اتخذوا من أفاريس عاصمة لهم، وكان (أي كاموسي) يحكم في مصرالعليا بينما كانت النوبة السفلى مستقلة تحت سيادة حاكم كوش الذي امتد سلطانه حتى أسوان.[٥٦] ويبدو أن مملكة كرمة عندما كانت في قمة مجدها حل ملوكها محل الملك نفسه كأعلى سلطة سياسية على النوبة السفلى وتجارتها، وكانت هذه الأوضاع الجديدة وتغير الأحوال، بلا شك، هي التي أثارت الملك في طيبة ليبث شكواه الشهيرة: "إنني أجلس منعزلاً بين آسيوي ونوبي، كل رجل امتلك شريحة من مصر هذي".[٥٧]

أقام ملوك الهكسوس علاقات تجارية وسياسية وطيدة مع زعماء كوش قادت إلى تحالف بين الطرفين ضد الحكام في طيبة، ويشير إلى ذلك وجود بعض الجعارين التي تحمل طابع الهكسوس في مقابر النوبة السفلى.[٥٨] وقد استمرت هذه الحالة حتى مجيء الأسرة السابعة عشرة (١٦٠٠–١٥٧٠ ق.م)، حيث بدأ ملوكها في إعادة تكوين القوة المصرية تدريجياً، ثم بدأت بعد ذلك حرب التحريرتحت إشراف كاموسي، الذي ذكر في أحد ألواحه أنه اعترض رسالة من ملك الهكسوس إلى زعيم كوش يطلب فيها المساعدة من زعيم كوش، وذلك بأن يهاجم مصر من الجنوب بينما

(٥٥) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, p. 80.

(٥٦) St. Wenig (1978) *Africa in Antiquity,Vol. 11*. New York: Brooklyn Museum, p. 79.

(٥٧) وليام ي. آدمز، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٥٨) T.G.H. James (1973) "Egypt: From the expulsion of the Hyksos to Amenophis 1", in *C.A.H.* Vol. 11, PART 1. Cambridge: Cambridge University Press, p. 297.

يهاجمها هو من الشمال.[٥٩] ويبدو أن هؤلاء الغزاة الآسيويين كانوا على درجة عالية من الدهاء، فعرفوا أنهم لن يستطيعوا حكم مصر ما لم يستميلوا الكوشيين، وعلى ذلك وضعوا أسس أو محور سياستهم الخارجية. لذلك نجد زعيمهم يخاطب الزعيم الكوشي قائلا: "..... التحية لابن زعيم كوش. لماذا تبوأت عرش كوش ولم تخبرني؟ تعال إلي، أبحر شمالاً ولا تخف..... هو الآن معي وسوف لن أتركه حتى تصل ونقتسم أرضه مناصفة بيننا.[٦٠] لم يصل هذا الخطاب إلى ملك كوش؛ فقد وقع في يد رجال الملك كاموسي ولكن ليس لدينا أي دليل عما إذا كان هذا الخطاب هو الأول من نوعه أم سبقته خطابات أخرى مشابهة له تحمل أيضاً تحريضاً ضد المصريين.

ما سبق يؤكد أن مملكة كرمة كانت قوية ولها من القوة ما جعل ملك الهكسوس يأمل محاربة مصر بها وطعنها من الخلف بملوك كوش وجيوشها، وأن كرمة بالتالي أصبحت عاملاً مؤثراً في سياسة مصر الداخلية، كما كانت لا تقل قوة عن الهكسوس الذين حكموا مصر كغزاة أجانب.

دور الجنود الكوشيين في خدمة وحماية ملوك الدولة المصرية الحديثة

لم يتخذ حاكم كوش أي موقف حيال الأحداث الأخيرة في مصر، خاصة أن الرسالة التي أرسلها إليه حاكم الهكسوس لم تصله، وذلك بدليل وجود قوات مساعدة من كوش مع القوات المصرية في نهاية مرحلة الصراع لطرد الغزاة من وادي النيل. كما أن العلاقات بين مصر وكوش كانت سلمية في بداية حرب التحرير بدليل أن بعض الموظفين المصريين كانوا يعملون تحت إمرة حاكم كوش.[٦١] من ناحية أخرى،

(٥٩) A.H. Gardiner (1961), *op. cit.*, p. 167.

(٦٠) T. Save-Soderbergh (1949), *op. cit.*, pp. 56-57.

(٦١) T. Save-Soderbergh (1949), *op. cit.*, pp. 57.

أثبتت الحفريات والآثار في مصر وجود جالية نوبية كبيرة هجرت بلادها للعمل في مصر بجيش الفرعون، وتعاونوا مع المصريين على طرد الغزاة، وأن الفراعنة كانوا يغدقون الأموال على الجنود الكوشيين. وقد انتشرت بين الشلال الأول ودير طاسا بالقرب من أسيوط مقابر النوبيين التي ربما كانت لها صلة وثيقة بكتائب المحاربين التي استعان بها أمراء التحرير لطرد الهكسوس من مصر في مطلع الدولة المصرية الحديثة.(٦٢) ويفخر كاموسي بأن الفرق الميجاوية كانت على رأس قواته المحاربة ضد الآسيويين المعتدين، ولا شك أن هؤلاء هم أصحاب القبور المذكورة آنفاً.(٦٣)

وقد عثر على رسم ملون فريد من نوعه كان لأحد أولئك المحاربين نحت على جمجمة ثور وجد في مستجدة،(٦٤) صُور فيها المحارب واقفاً، وببشرة سوداء، حليق الرأس والوجه، ويلبس إزاراً قصيراً إلى فوق الركبة بلون أحمر والجزء العلوي من جسمه مكشوف، ويتحلى بعقد عريض، ويتسلح بفأس من خلف ظهره، ويحمل في يده سوطاً. لا جدال أن هؤلاء الجنود كانوا أحراراً، تشهد بذلك مقتنيات مدافنهم وما عثر فيها من مصنوعات ذهبية. ومما يدل على أنهم كانوا يمنحون رواتب مجزية، أن بعضهم كان يمتلك العبيد.(٦٥)

وقد ذكر أحمس بن أبانا، أحد قادة أحمس الأول (١٥٧٠–١٥٤٥ ق.م)، في سجل الحرب أنه أبحر جنوباً مع الملك إلى مكان يدعى "خنت حن نفر"، ولا شك أنه اسم اطلق على مكان ما في كوش، وأن ساكني هذه المنطقة هم "اليونو بجيتو"، وهو

(٦٢) H. Kees, *op. cit.*, p. 142.

(٦٣) T. Save Soderbergh (1949), *op. cit.*, p. 57.

(٦٤) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, p. 79.

(٦٥) محمد إبراهيم بكر، مرجع سابق، ص ٦٣.

اسم عام، وربما قصد البجا، وهم من أصحاب القوس. ويستطرد السجل فيقول إن معركة كبيرة قد دارت بينهم، مما يدل على قوة وضخامة القوات التي حاربها أحمس. ورغم انتصاره، فإن الثورة قامت من جديد تحت زعامة أمير آخر يدعى "آآتي" كان يمتلك إسطولاً نهرياً، فخرج أحمس وتلاقيا عند مكان يدعى "تنت تا"، وهو مكان غير معروف على وجه التحديد. ومع أن الأمير قد هزم، إلا أن الأمر لم يستقر لأحمس كما كان يتمنى، إنما تبع ذلك أمير آخر قام بالثورة، بيد أن أحمس تمكن من هزيمته وقتله وتشتيت جماعته.[٦٦] وهنا يبدو جلياً أن مسألة مواجهة الكوشيين لم تكن بالأمر السهل بالنسبة للمصريين؛ فقد واجهوا مقاومة شرسة وتكررت ثوراتهم كما أورد أحمس بن أبانا في نقوشه.[٦٧]

لم يستسلم الكوشيون للسيطرة المصرية؛ فقد تكررت الثورات على عهد تحتمس الأول (١٥٣٠–١٥٢٠ ق.م). والغريب أن مكان الثورات هو نفس المكان الأول (خنت حن نفر)، وهذا قطعاً يؤكد مدى الإزعاج الذي كانت تسببه تلك الإمارة لحكام مصر، ومدى خوفهم منها.[٦٨] وإلى عهد قريب كان الاعتقاد السائد أن كرمة قد سقطت في عهد الملك تحتمس الأول، على الرغم من نظرية أمري التي تقترح أن حملة تحتمس الأول قد سلكت الطريق الصحراوي الذي يبدأ من النوبة السفلى وينتهي مباشرة عند منحنى النيل في كرقس،[٦٩] غير أن الأبحاث التي أجرتها البعثة السويسرية برئاسة شارل بونيه في كرمة عززت نظرية أمري، وأكدت أن الملك الذي يمكن أن تنسب إليه

(٦٦) نفس المرجع، ص ص ٣٦–٣٧.

(٦٧) محمد بيومي مهران، مرجع سابق، ص ٢٥٦.

(٦٨) محمد إبراهيم بكر، مرجع سابق، ص ص ٣٧–٣٨.

(٦٩) W.B. Emery (1965), *op. cit.*, p. 174.

مسألة تدمير كرمة هو تحتمس الثالث وفي عهده الذي حكم فيه منفرداً (١٤٦٨-١٤٣٦ ق.م).[٧٠]

استمرت شهرة أهل كوش كمحاربين شجعان ولازمت سيرتهم صفة الأمانة والإخلاص عند الملوك المصريين، مما مهد لهم تولي بعض المناصب الهامة في جهاز الدولة المصرية الحديثة. فقد كان الملوك يصرون على استدعاء نفر منهم ليكونوا ضمن حرسهم الخاص. وفي زمن الفرعون تحتمس الثالث ورد ذكر اختيار عشرة من رجال كوش ليصبحوا ضمن حرسه الخاص[٧١] وشاغلي وظائفه الخاصة. ففي عهده حمل الكوشيون وظائف متعددة مثل حامل المروحة، والذي كان يختار من ثقاة القوم، وكان يحضر الاجتماعات الملكية مع كبار الموظفين والقادة العسكريين، ويدلي برأيه أحياناً. ومن الوظائف أيضاً، وظيفة قائد العربة الملكية وحامل العلم. يلاحظ أن حامل المروحة في الرسم على الصندوق المزخرف والخاص بتوت عنخ آمون (١٣٥١-١٣٤٢ ق.م) كان من أهل كوش،[٧٢] وهذا يعني استمرار الوظيفة واستمرار الموظف عليها.

ومن الشخصيات الكوشية التي عرفت على أيام الملكة حتشبسوت (١٤٩٠-١٤٦٨ ق.م)، ماي حو بري الذي كان يحمل ألقاباً تدل على تمتعه بثقة الملكة، وأنه كان ضمن رفقاء الملك تحتمس الثالث فيما بعد في تحركاته إلى البلاد الأجنبية. وتدل جمجمته وصوره على ورق البردي وبعض مخلفاته التي عثر عليها في مقبرته في وادي الملوك بطيبة أنه كوشي، إلى جانب نماذج من المصنوعات والملابس الجلدية

(٧٠) Ch. Bonnet (1986) "Les fouilles archeologiques de Kerma (Soudan)", *Geneva* XXXIV, p. 10.

(٧١) محمد إبراهيم بكر، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٧٢) نفس المرجع، ص ٥٣.

تشابه نظيراتها المميزة لحضارة كوش قبل زمن المملكة المصرية الحديثة. ومثال آخر، صاحب المقبرة (٧٤) بمنطقة الشيخ عبد القرنة بطيبة والذي كان يحمل اسماً غير مصري (ثني)؛ فقد عاش وخدم زمن الملك تحتمس الثالث وتحتمس الرابع كسكرتير ملكي، وهي وظيفة ذات طابع حربي. وكقائد حربي فقد حمل أيضاً العديد من الألقاب التي تدل على مبلغ نفوذه. وربما قدم "ثني" إلى مصر مع بعض الفرق الكوشية المحاربة وتدرج في المناصب حتى وصل إلى هذا المنصب الحربي الهام كقائد.[٧٣]

عاشت في عهد الملك تحتمس الرابع في طيبة عائلة "حورمحب"؛ وقد صُور ثلاثة من أفراد هذه العائلة على جدران المقبرة (٧٨) في طيبة، وهم ثلاثة إخوة حملوا جميعهم أسماء مصرية، وكان أحدهم يحمل لقب رئيس فرق الميجاو، وهي فرق الشرطة الكوشية. ويلاحظ أنه صُور وفي يده القوس الذي يمثل السلاح الذي برع سكان النوبة في استعماله حتى صار رمزاً لهم ولقبهم به المصريون منذ القدم (أصحاب الأقواس). ومن تلك الشواهد التحلي بالأقراط المستديرة، وتزعُّم فرق الشرطة الكوشية، والتباهي بحمل سلاحها المميز.[٧٤]

لم تكن بلاد النوبة السفلى خلال عهد الأسرة التاسعة عشرة تذكر كخصم لمصر، بل على النقيض، قد زادت أهميتها بالنسبة للسياسة الداخلية. فقد كانت تزود مصر بالرجال لجيوشها وبالذهب لإنعاش اقتصادها. وقد ضم الجيش المصري في تلك الفترة وحدات من الجنود الكوشيين.[٧٥] فبلاد النوبة جنوباً حتى الشلال الرابع خلال الأسرة التاسعة عشرة، إن لم تكن قبل ذلك، صارت جزءاً من مصر وفقدت هويتها.

(٧٣) نفس المرجع، ص ص ٥٣-٥٤.

(٧٤) نفس المرجع، ص ٥٥.

(٧٥) W.B. Emery (1965), *op. cit.*, p. 202.

وفي عهد رعمسيس الحادي عشر تدخل نائب الملك في كوش، بانحسي (الأسود)، وقواته النوبية في الشؤون الداخلية السياسية في مصر، كما سنرى لاحقاً.[٧٦] ومن ثم يمكن القول إن وظيفة حاكم كوش أصبحت من أهم وظائف الدولة[٧٧] على أقل تقدير، لأنه كان من مهامه إعداد جيش من الكوشيين لدعم الجيش المصري.

تعتبر شخصية بانحسي السابق الذكر (١١٢٠– ١١٠٠ ق.م) من الشخصيات الكوشية التي لعبت دوراً في التاريخ المصري. فعلى أيام الملك رعمسيس الحادي عشر، آخر ملوك الأسرة العشرين، عمت الثورة والحرب الأهلية مصر اشتركت فيها عناصر أجنبية، خاصة الليبيين. كان بانحسي في ذلك الوقت في مصر العليا على رأس قوة من الجيش الكوشي، وربما استدعي ليضع حداً للنفوذ الليبي الذي تفاقم في هيراكليوبوليس.[٧٨] فاستنجد الملك به، إذ لم تكن في البلاط قوة تستطيع السيطرة على الفوضى العصيبة، وطلب منه أن يحضر جيشه ليقضي على الاضطرابات، فلبى الأخير النداء. والمرجّح أنه تمكن من القضاء على الفوضى إلى حد ما في طيبة ومصر الوسطى بالقوة العسكرية. ولم يحاول استغلال الموقف، رغم أنه كان يمثل القوة الوحيدة الباقية في وادي النيل آنذاك. فقد تصرف بأمانة ونكران ذات، ولم يستغل نفوذه كنائب للملك وكأكبر قوة موجودة، بل ظلت كوش على ولائها لمصر طوال سنوات الضعف السياسي الذي أصابها على أيام الرعامسة.[٧٩] وقد استطاع بانحسي أن يحفظ لمصر وحدتها، وصانها من التردي في الهاوية واستطاع بفضل كفاءته أن يصل إلى أرقى مناصب الدولة، وهو منصب ابن الملك في كوش،[٨٠] وهي

(٧٦) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, pp. 96-97.

(٧٧) محمد بيومي مهران، مرجع سابق، ص ٣٧٢.

(٧٨) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, p. 108.

(٧٩) محمد إبراهيم بكر، مرجع سابق، ص ٥٩. –٧٩

(٨٠) A.H. Gardiner (1961), *op. cit.*, pp. 301-302.

وظيفة مصرية كانت فيما مضى يشغلها المصريون. وجدير بالذكر أن بانحسي حمى رعمسيس الحادي عشر وقضى على ثورة الكهنة التي تزعمها الكاهن أمنحوتب، وتولى منصب كبير الكهنة بعده حريحور[٨١] وهكذا استطاع الجيش الكوشي بكفاءته العالية أن ينقذ مصر من خطر ثورة الكهنة، فلم يجرؤ أحد على التطاول على العرش إلا بعد وفاة بانحسي. وقد أشارت المحاضر القضائية الخاصة بعملية سرقة القبور أوآخر أيام الرعامسة إلى إجراءات الأمن القوية التي قام بها.[٨٢]

أصبح حريحور نائباً للملك بعد رجوع بانحسي إلى بلاد النوبة. وكنائب للملك ووزير لطيبة، صار الحاكم الرسمي لمصر العليا والنوبة، وبحكم وضعه ككاهن أكبر سيطر على أملاك الإله آمون، وضمن دعم الجيوش الكوشية. وقد ظل محتفظاً بوظيفته كابن للملك حتى أصبح ملكاً في سنة (١٠٨٥ ق.م)،[٨٣] عندما استولى على عرش الملك رعمسيس الثاني عشر، وقام بتعيين ابنه بعنخي وزيراً. إن هذا الدور الهام الذي لعبته الجيوش الكوشية في الحياة السياسية المصرية ينبغي الإشارة إليه، لأن مصر استطاعت أن تبسط سلطانها على أماكن بعيدة في آسيا بمساعدة القوة الحربية الهائلة التي استمدتها من كوش الزاخرة بالرجال الشجعان. فقد كانت بلاد النوبة السفلى خلال الأسرة التاسعة عشرة تزود مصر بالجنود، كما أن منطقة الشلال الثاني كانت تحت السيادة المصرية خلال الأسرة العشرين، وكانت مصر تعتمد كثيراً على جنودها الكوشيين.[٨٤]

(٨١) محمد بيومي مهران، مرجع سابق، ص ٣٣١.

(٨٢) نفس المرجع، ص ٣٣٠-٣٣١.

(٨٣) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, p. 108.

(٨٤) محمد بيومي مهران، مرجع سابق، ص ص ٣٧٢-٣٨٩.

علاقة مملكة نبتة بمصر وصراع ملوكها مع الآشوريين

اختفى اسم كوش بعد نهاية الأسرة العشرين من النقوش المصرية ولم يعد لها أي ذكر. ويبدو أنه بنهاية الأسرة الثانية والعشرين أصبحت كوش دولة مستقلة فعلياً عن مصر، ولكن نسبة لقلة النقوش المعاصرة لهذه الفترة فإن قيام مملكة نبتة قد أحاط به شيء من الغموض. ما يهمنا هنا أن الملك كاشتا، عند قيام دولة كوش، تمكن بجنوده الكوشيين من التحرك نحو الشمال واستولى على طيبة وعلى جزء صغير من مصر العليا وأجبر الملك الليبي أو سركون الثالث على التقهقر، كما أجبر ابنته شبنوبت الأولى على تبني ابنته امنرديس الأولى كزوجة عابدة للإله آمون(٨٥) وعندما اعتلى بعنخي العرش كان الجزء الجنوبي للبلاد حتى هيراكليوبوليس تحت إشراف منتوحتب المصري الذي عينه الملك كاشتا ليحكم مصر العليا باسم نبتة. وفي عامه الحادي والعشرين فكر بعنخي في مواجهة تهديد تفنخت – أحد أمراء الدلتا– والذي تمكن من توحيد مصر السفلى تحت حكمه واتخذ لنفسه لقب فرعون، ثم اتجه نحوهيراكليوبوليس وحاصرها.(٨٦) ويبدو أن تفنخت كان يسعى لضم مصر العليا والتقدم نحو أبيدوس وطيبة، إلا أنه بعد وصول بعنخي وسقوط ممفيس في يده انسحب تفنخت وتحصن في الدلتا واختبأ فيها حيث أبدى بعد ذلك خضوعاً اسمياً(٨٧)

(٨٥) G.A. Reisner (1919) "Outline of the ancient history of the Sudan. Part IV: The first kingdom of Ethiopia, its conquest of Egypt and its development into kingdom of the Sudan (1100-250 B.C)", *SNR,* Vol. 11, pp.35-67.

(٨٦) J.H. Breasted (1962), *op. cit*., (Vol.4), paras. 816-818.

(٨٧) A.L. Kitchen (1976) *The Third Intermediate Period in Egypt (1160-650 B.C.)*. Oxford: Alden Press, p. 144; J.H. Breasted (1962), *op. cit.*, (Vol. 4), paras. 880-881.

بانتصار قوات كوش على تفنخت وتسليم بقية الأمراء في الدلتا تأسست الأسرة الخامسة والعشرون.[٨٨]

كانت فترة حكم الكوشيين لمصر متزامنة مع تصاعد قوة دولة آشور كقوة عالمية استطاعت أن تسيطر على دول غرب آسيا ولم يبق أمامها إلا دولة يهوذا. فاتبع شبكا معهم سياسة الحياد، ولكن خليفته شبتاكا لم يكن محايداً؛ فقد دخل معهم في سياسة عدوانية، لذلك أعد قواته لحربهم في فلسطين عندما استنجد به حزقيا ملك يهوذا. أرسل شبتاكا طالباً حاشية من النوبة إلى طيبة والدلتا، وكان تهارقا – الذي كان عمره آنذاك عشرين عاماً – أحد أفراد هذه الحاشية. وقد صحبتها أيضاً قوة حربية،[٨٩] ولابد أنه كان بجانبه عدد من الجنرالات الذين كانوا يقدمون له الخبرة العسكرية. نجح الملك الآشوري سنخريب في هزيمة المتحالفين.[٩٠] وبعد الاستيلاء على أورشليم عمد سنخريب لغزو مصر بسبب مساعدتها لملوك أورشليم،[٩١] إلا أنه اضطر للتراجع إلى نينوى بسبب انتشار وباء الطاعون في جيشه،[٩٢] ولم تسقط أورشليم إلا في عهد خليفته أسارحادون. زحف الملك الآشوري أسارحادون بعد ذلك نحو مصر وتمكن من الاستيلاء على ممفيس، غير أنه لم يمض زمن طويل إلا ورجع تهارقا من جديد واستعاد ممفيس وأعاد سيطرته على الدلتا.[٩٣] استطاع آشور بني بعل بعد وفاة والده أسارحادون من مواصلة المواجهة مع تهارقا، فهزم قواته في

(٨٨) G.A. Reisner (1919), *op. cit*., pp.47-48; W.B. Emery (1965), *op. cit*, p. 208.

(٨٩) A.L. Kitchen, *op. cit.*, p.383.

(٩٠) *Ibid*., idem.

(٩١) E.A.Wallis Budge, *op. cit.*, p. 34.

(٩٢) Kitchen, *op. cit.*, p. 383.

(٩٣) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, p. 128.

الدلتا الشرقية، واستعاد ممفيس من تهارقا الذي انسحب إلى طيبة. فلحقته الجيوش الآشورية واستولت عليها في سنة (٦٦٦ ق.م).[٩٤] في هذا الوقت انسحب تهارقا إلى نبتة وبها توفي قبل أن يعد نفسه من جديد ليواجه الغزاة الآشوريين. ثم سعى خليفته تانوت آمون أيضاً لاستعادة مصر من الآشوريين، إلا أنه لم يوفق في نهاية الأمر. وهكذا انسحب الملوك الكوشيون عن مصر، وتركوها للغزاة الآشوريين، رغم أنهم أبلوا بلاءاً حسناً في الدفاع عنها.[٩٥] وربما يعزى التفوق الحاسم للجيوش الآشورية على القوات الكوشية للأسلحة الحديدية التي كان لها كبير الأثر في عودة ملوك نبتة إلى عاصمتهم الأولى.[٩٦] فقد استخدم الآشوريون في صراعهم مع الكوشيين الخيل والمركبات الحربية التي تجرها الخيول، وكانوا أعظم قوة حربية شهدها التاريخ القديم. لذلك ربما كان انسحاب تهارقا أمامهم بغرض الإعداد لمواجهتهم.

الكوشيون في العصرين الفارسي والروماني

بعد انسحاب الكوشيين من مصر تكونت الأسرة السادسة والعشرون المصرية التي قام ملكها بسماتيك الثاني، ومباشرة بعد وصوله للعرش، بإعداد حملة تأديبية إلى بلاد كوش(٥٩١ ق.م) كانت من نتائجها إحراق عدد من المعابد وتحطيم نبتة، وكذلك تحطيم التماثيل الملكية التي كانت موجودة داخل معابد جبل البركل، كما قام بكشط الأسماء الملكية من اللوحات الخاصة ببعض الملوك الكوشيين. وقد ساعده في ذلك اصطحابه لأعداد كبيرة من الجنود المرتزقة الكاريين (the mercenaries Carian) والذين خلفوا نقوشاً على صخور الشلال الأول ذكروا فيها أنهم وصلوا

(٩٤) *Ibid*., p. 129.

(٩٥) محمد بيومي مهران، مرجع سابق، ص ٦٣٠.

(٩٦) محمد إبراهيم بكر، مرجع سابق، ص ٨٠.

حتى كركس (ربما كرقس).[٩٧] وقد خلف بسماتيك الثاني نقشاً في الكرنك ذكر فيه أن الكوشيين حاربوا بشجاعة وعنف، لكنه رغم ذلك انتصر عليهم.[٩٨]

وقعت مصر في عام (٥٢٥ ق.م) في يد الفرس، فأرسل ملكهم قمبيز بعض رجاله وفي معيتهم رجال من منطقة الفنتيين ممن يتحدثون اللغة المروية، إلى بلاد كوش محملين بالهدايا للملك المروي.[٩٩] عرف الملك المروي منذ الوهلة الأولى أنهم جواسيس، ولكن لم يعتقلهم، إنما جاءهم بقوس قوي ثناه ورماه قائلاً: "إن كان ملككم يستطيع أن يرمي بهذا القوس فهو جدير بمحاربتي، ولكني أعرف أنه لا يقدر حتى على حمله". رجع رسل قمبيز يحملون له القوس، مما دعاه أن يقبل التحدي. فقد غضب قمبيز غضباً شديداً وأعد جيشه وأمره بالزحف على مملكة مروي، لكنه لم يتدبر له الأقوات ولا قدر أنه غازٍ بلاداً بعيدة. سار الجيش الفارسي لمواجهة المرويين، ولكن قبل أن يقطع خمس الطريق نفذت منه الأقوات وواجهته صعوبات جمة. رغم ذلك استمر في السير، ولم يقتنع بالرجوع، فاضطر الجنود إلى قتل دوابهم لتأمين الطعام، إلا أنها هي الأخرى نفذت، فتناولوا ما توفر لهم من العشب للبقاء على قيد الحياة. وعندما وصلوا إلى الصحراء أصبحوا يأكلون بعضهم البعض، إذ يختارون بالقرعة واحداً من بين عشرة ليصبح طعاماً لهم. ولما جاءت التقارير إلى قمبيز بهذا الأمر تخلى عن فكرة الحملة إلى مروي، ولكن بعد أن تقلصت قواته إلى حد كبير.

(٩٧) A.J. Arkell (1961), *op. cit.*, p. 145.

(٩٨) T. Eide, R.H.Hagg & L. Torok (1994) *Fontes Historiae Nubiorum*. Bergen: Dept. of Classics, University of Bergen, pp. 280-282.

انظر: سامية بشيردفع الله (٢٠٠٥)، تاريخ مملكة كوش: نبتة ومروي. الخرطوم بحري: دار الأشقاء للطباعة والنشر، ص١٠٢.

(٩٩) L. Herodotus (1920) *Historae,Book Three*, trans. by A.D.Godley. London, pp. 211-212.

وهكذا انتهت الحملة الفارسية إلى مملكة مروي.[١٠٠] وربما كان الملك المروي يعرف أن التكتيك الحربي في عهد قمبيز وأتباعه يعتمد على الرماية بالقوس والسهام، لذلك قصد تحديهم ومنازلتهم بسلاح يعرفونه لأنه كان واثقاً من أنه سيتغلب عليهم ويهزمهم.

يبدو أن الفرس عندما حكموا مصر قد سمعوا عن شجاعة الجندي الكوشي، هذا إلى جانب ما نقله لهم رسل الملك قمبيز من استعداد الملك المروي لتحديهم، كما ذكرنا آنفاً، فلجأوا إلى الاستعانة بهم، حيث تذكر المصادر الفارسية أن الإمبراطور الفارسي دارا الأول (٥٢١-٤٨٦ ق.م) قد استعان بالجيوش الكوشية.[١٠١] كما ذكر هيرادوت أن بعض المحاربين الكوشيين كانوا ضمن جيش الإمبراطور الفارسي إكزركيس (٤٨٦-٤٦٥ ق.م) الذي قام بإخماد ثورة في مصر العليا. ولابد أن استعانة هؤلاء الأباطرة الفرس بالجنود الكوشيين إنما كانت دليلاً على الشهرة الحربية التي تميزوا بها، وهي تعيد إلى أذهاننا محاولة الهكسوس من قبل حينما سعوا للاستعانة بالكوشيين للقضاء على أمراء مصر العليا.

كان الجنود الكوشيون الذين ساهموا في إخماد ثورة مصر العليا، والتي قامت ضد الفرس، كما ذكر هيرادوت، يستخدمون رؤوس السهام الحجرية، وأنهم جاءوا من أقصى جنوب كوش، وأن انضمامهم للجيش الفارسي قد تم على علم وإشراف مباشر من الملك المروي، وربما أرسلوا كهدايا أو مرتزقة لإكزركيس. وقد وجدت في

(١٠٠) هيرادوت (٢٠٠١)، تاريخ هيرادوت، ترجمة عبد الله الملاح. أبو ظبي: المجمع الثقافي، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(١٠١) K.H. Priese, (1978) "The Kingdom of Kush: The Napatan period", in *Africa in Antiquity*, ed. by S.Hoschflie. New York: Brooklyn Museum, p. 80.

جبانة البجراوية الغربية بعض المخلفات ذات الطابع الفارسي التي ربما كانت هدية من إكزركيس إلى أحد أعضاء الأسرة المالكة الذي كان له علاقة بإرسال هؤلاء الجنود.[١٠٢]

ارتقى الإمبراطور أرتكسركيس الأول عرش الإمبراطورية الفارسية في عام (٤٦٥-٤٦٤ ق.م) وسادت الإمبراطورية حالة من الفوضى. وقد رغبت كثير من الولايات في التخلص من الحكم الفارسي، وكانت مصر من الولايات التي شقت عصا الطاعة.[١٠٣] وبالفعل نعمت مصر بالاستقلال في عهد الأسرات الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين والأسرة الثلاثين. ولكن في عام (٣٥٨ ق.م) تولى عرش الإمبراطورية الفارسية الإمبراطور إرتكسركيس الثالث وقرر إعادة مصر إلى حظيرة الإمبراطورية الفارسية، وتمكن في سنة (٣٤٢ ق.م) من هزيمة ملك مصر، نختنيبو الثاني، آخر ملوك الأسرة الثلاثين.[١٠٤] فلجأ نختنيبو الثاني إلى النوبة السفلى، ربما كان بحثاً عن التأييد والمساعدة عند أحد الزعماء المحليين ذوي النفوذ. وفيما يبدو أن المصريين كانوا ينظرون إلى كوش بأنها الحامية للتقاليد المصرية والعدو الحقيقي للمحتل الأجنبي.[١٠٥] ولا شك أن هذا السلوك من ذلك الملك يؤكد لنا ما نحن بصدد تأكيده من السمعة والشهرة الحربية التي ميزت الإنسان الكوشي.

ظل القوس رمزاً حياً في ذاكرة الكوشيين؛ فعندما ابتكر المرويون آلهة محلية خاصة بهم كان على رأسها الإله أبيدماك الذي رمزوا له بالأسد. أضفى المرويون

(١٠٢) L. Torok (1984) "Kush and the external World", a paper presented to the 5th Int. Confernce for Meroitc Studies, Roma.

(١٠٣) أبو اليسر فرج (٢٠٠٤)، تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ص ٢٦.

(١٠٤) نفس المرجع، ص ٢٦-٢٧.

(١٠٥) محمد بيومي مهران، مرجع سابق، ص ٦٩٢-٦٩٣.

على معبودهم صفات خاصة تعبر عن شخصيته كمحارب؛ فقد صُور في مشهد على صفحة الجدار الجنوبي الخارجي لمعبد الأسد الذي بناه الملك أرنخمني (٢٣٥-٢٢١ ق.م) بالمصورات الصفراء وهو يحمل أدوات القتال المؤلفة من القوس والسهام، كما وصف بأنه "القوي المنيع عندما يرسل سهامه".[١٠٦] ونضيف أيضاً أن أنشودة أبيدماك المشهورة جاء فيها ذكر السهام، حيث وصف هذا الإله بـ"الأول في الأرض.....أرض السهام".[١٠٧]

عندما أصبحت مصر ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية في عام (٣٠ ق.م) كانت طيبة مركزاً للقلاقل والثورات، ووقفت ضد الحكم الروماني، وكان للمرويين دورهم الكبير في ذلك. فقام الحاكم الروماني، بعد أن أخضع طيبة وأخمد ثورتها، بإنشاء وحدة إدارية كانت تحكم بواسطة كوشي، إلا أنها كانت تقع تحت الوصاية الرومانية. وقد امتدت هذه الوحدة لتشمل الوادي الممتد بين الشلالين الأول والثاني[١٠٨] ولكن المرويين لم يذعنوا لإرادة الرومان؛ فعندما أرسل الرومان في عام (٢٩ ق.م) عدداً من وحداتهم العسكرية لإخماد إحدى الثورات في جنوب الجزيرة العربية استغل المرويون هذه الفرصة وهاجموا أسوان وفيلة بقيادة الملك تريتيقاس والملكة أماني ريناس وابنهما أكنداد. وعندما توفي الملك قاد ابنه الحملة وتمكن من فتح جزيرة فيلة وأسوان، مما أجبر القائد الروماني بترونيس على الخروج على رأس حملة لملاقاتهم. تقابل الجيشان وكتب النصر للرومان، فطالبوا المرويين بإعادة ما

(١٠٦) F. Hintze (1962) "Preliminary rerport on the excavations at Musawwarat es Sufra 1960-1961", *Kush,* Vol. X, pp. 170-202.

(١٠٧) أسامة عبد الرحمن النور (١٩٧٤)، "عبادة الإله الأسد في السودان القديم"، مجلة الخرطوم، العدد الخامس، السنة السادسة، ص ص ٢٨-٣٧.

(١٠٨) Torok, *op. cit.*, p.29.

استلبوه، ولكن النوبيون رفضوا الاستسلام وتمسكوا بموقفهم رغم تهديد الرومان، ورغم نتيجة الحرب التي خاضوها. فكانت النتيجة زحف الرومان إلى نبتة وإنزال الهزيمة بها، وتدمير جزء كبير منها، ورجعوا بالأسرى والأسلاب واستولوا على دكة ومدينة قصر إبريم وبقوا بها قرابة الثلاث سنوات. بعد ذلك أشار القائد الروماني على المرويين بمقابلة الإمبراطور الروماني والذي كان موجوداً في جزيرة ساموس، إحدى جزر بحر إيجة، للتفاوض، وتم تحديد شروط الاتفاق بين الطرفين، حيث جعلت منطقة المحرقة بالنوبة السفلى الحد الفاصل بين المملكة المروية والإمبراطورية الرومانية.(١٠٩) وبالتالي أصبح هذا الإقليم تحت سيادة الرومان، وأُلغيت الجزية التي سبق أن فرضها بترونيوس على الكوشيين.(١١٠) هنا يبدو لنا واضحاً إدراك الرومان مدى الخطورة التي كانت تهدد بلادهم من جهة حدودهم الجنوبية، مما اضطرهم إلى مهادنة المرويين ومسالمتهم.

بعد غزوة بترونيس لمملكة مروي في عام (٢٣ ق.م) لم يرد أي ذكر لنشاط عسكري روماني؛ ويمكن القول إن المرويين، ولمدة قرنين من الزمان، كانوا في حالة سلم مع جيرانهم. يبدو بعدها أن مروي انتهت إلى مجموعة من الزعامات الصغيرة وظهرت وريثة لها في بلانة في النوبة السفلى. أقام ملوك هذه الدولة حكمهم على نظرائهم من البلميين والنوباتيين الذين كانوا يقيمون في النوبة السفلى. وفي حقيقة الأمر، بعد انقطاع ذكر مروي بدأ الكتاب يتحدثون عن شعبين في النوبة السفلى، وهما البلميون والنوباتيون. يتفق كثير من المحدثين على تعريف البلميين بقبائل البجة

(١٠٩) L.P. Kirwan (1959) "The International Position of the Sudan in Roman and Medieval Times", *Kush,* Vol. V, p. 24.

(١١٠) عبد اللطيف محمد علي (١٩٧٤)، مصر والإمبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية. بيروت: دار النهضة العربية، ص ٦٨-٦٩.

اليوم أو الميجاو المحاربين القدماء الذين ورد ذكرهم كثيراً في الصفحات السابقة. لقد كان البلميون يمتلكون المقدرة العسكرية، وربما أسسوا لهم موطئ قدم في إقليم الدوديكا سخينوس (الإثني عشر فرسخاً) في ظل الحكم الروماني، وكانت غزوات النهب والسلب تأتي من جانبهم، وكان عجز الرومان عن صدها سبباً في تخليهم (أي الرومان) عن هذه المنطقة لهم وانسحابهم إلى أسوان.(١١١) أما النوباتيون فهم أعقد إشكالية من حيث أصولهم.(١١٢) فطبقاً لبروكبيوس، وهو مؤرخ في القرن السادس الميلادي، إنهم جاءوا من الصحراء الغربية إلى النوبة السفلى بدعوة من الإمبراطور الروماني دقلديانوس (٢٨٤–٣٠٥م) الذي كان يأمل في أنهم سيكونون منطقة عازلة بين حدود مصر الرومانية والبلميين مقابل مكافأة مالية لكل من الطرفين على حدٍّ سواء.(١١٣) وهذا يعني أن البلميين ربما أصبحوا مشكلة كبرى لمصر خلال النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي.

كان النوباتيون، بتشجيع من الرومان، يشنون الحروب على البلميين من وقت لآخر حتى حسمت الحروب بينهما نهائياً بواسطة الملك النوباتي سيلكو في القرن السادس الميلادي تقريباً، فأصبحت بلانة – التي كانت واحدة من الزعامات التي انتهت إليها مملكة مروي في مراحلها المتأخرة – لاحقاً دولة نوباتيا التي مثلت القوة السياسية في النوبة السفلى وقت تحولها إلى الدين المسيحي في منتصف القرن السادس الميلادي.

(١١١) وليام ي. آدمز، المرجع السابق ، ص.٣٨١.

(١١٢) W.B. Emery & L. Kirwan (1938) *The Royal Tombs of Ballana and Qustul*, Vol. 1. Cairo: Government Press, p. 23.

(١١٣) L.P. Kirwan (1937) "A Survey of Nubian Origions", *SNR, No.* XX, Khartoum, pp. 61-62.

علاقة بلاد النوبة المسيحية بالمسلمين (صلح البقط).

لم يمض زمن على اعتناق النوبيين للدين المسيحي حتى اكتسحت الجيوش العربية مصر. فقد بدأ فتحها في عام (٦٣٩م)، ولم يكد عمرو بن العاص ينتهي من فتح مصر حتى حوَّل وجهة انتباهه للنوبة لضمان المحافظة على أطراف مصر من ناحية الجنوب وتأمين طريق التجارة.[١١٤] فأرسل في عام (٦٤١م) فرقة من الفرسان بقيادة عقبة بن نافع الفهري إلى بلاد النوبة. واجهت هذه الحملة مقاومة شديدة من النوبيين بفضل مهارة هؤلاء في الرمي بالسهام، فأطلق عليهم المؤرخون العرب اسم "رماة الحدق".[١١٥] فرجع جيش عقبة بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة. [١١٦] وكانت معركة دنقلا الأولى نكالاً على الفاتحين الذين أُجبروا على التفاوض والانسحاب. ومما يستحق الذكر أنّ رواة العرب الذين دوَّنوا هذا الحدث كانوا مبهورين بالفعالية القاصمة للنبّالة النوبيين. شنَّ العرب هجوماً آخر على النوبة (٦٥١ – ٦٥٢ م) وتقدمَ الفاتحون نحو دنقلا، حيث وقع التحام شديد يصفه شاعر عربي في البيتين التاليين: [١١٧]

لم تَرَ عيني مثل يوم دنقلا والخيل تعدو بالدروع مثقلة

ترى الحماة فيها مجدَّلة كأن أرواح الجميع مُهمَلة

(١١٤) المسعودي، علي بن علي أبو الحسن، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٣. دي مينار ودي كوتل، باريس، ص ٣٨–٣٩

(١١٥) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بنى عبد الله (١٩٢٠)، كتاب مصر وأخبارها. نشر توري، ص ١٦٩.

(١١٦) البلاذري، أبو الحسن بن يحيى بن جابر (١٩٨٣)، فتوح البلدان. بيروت: دار الكتب العلمية، ص ٢٣٨.

(١١٧) ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم بن علي المصري (١٩٨٣)، تاريخ ابن الفرات، ج ٣. بيروت: نشر قسطنطين زريق، ص ٤٤–٤٥.

وجاء في نصٍّ لشيخ حميري قال: "شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم أر قوماً أحدَّ في حرب منهم، فقد رأيت أحدهم يقول للمسلم أين تحب أن أضع سهمي منك؟ فربما عبث الفتى منا فقال: في مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمي بالنبل، فما يكاد يرى من نبلهم في الأرض شيء، فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم، رمونا حتى دهمت الأعين فعددت مائة وخمسين عيناً مفقوءة، فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصلح إنّ سلبهم لقليل وإن نكايتهم لشديدة".[١١٨]

لم تحسم المعركة بين العرب والنوبيين عسكرياً، فانتهت بهدنة بين الطرفين لم يحافظ عليها النوبيون بعد أن علموا بوفاة الخليفة عمر رضي الله عنه وعزل عمرو ابن العاص. فتم التوصل إلى معاهدة في عهد عبد الله بن أبي السرح الذي خلف عمراً في ولاية مصر أطلق المؤرخون العرب عليها "اتفاقية البقط".[١١٩] هذه المعاهدة حالة خاصة؛ فهي لم تكن معاهدة أو عهداً بالمعنى المعروف؛ فهي على الأرجح هدنة أو مصالحة. لكن الواضح بما فيه الكفاية أنها كانت توضح اهتمام العرب ببلاد النوبة كمصدر للرقيق، إذ كان أحد بنودها دفع ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق تدفع سنوياً إلى إمام المسلمين، على أن يكونوا من أوسط الرقيق، فيهم الذكران والإناث، ليس فيهم شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم.[١٢٠] بالنظر إلى هذا البند من حيث عدد الرقيق وتحديد نوعيتهم، لا نشك في أن الحاجة إليهم في التجنيد وتأهيل

(١١٨) البلاذري ، مرجع سابق، ص ص ٢٣٨-٢٣٩.

(١١٩) مصطفى محمد مسعد (٢٠١١)، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى. (د. م): دار المصورات للنشر، ص ١١٢ - ١١٩.

(١٢٠) البلاذري، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

الجيوش وإعدادها كان سبباً رئيساً لجلبهم، خاصة بعد ما عرف العرب من بسالة النوبيين في المعارك التي خاضوها معهم. ومن ناحية أخرى، كانت بلاد النوبة عندما تعجز عن دفع الرقيق تحدث بعض المشاكل، مثلما حدث في عام (٧٥٨م) عندما كتب الخليفة العباسي إلى الملك النوبي بدنقلا متذمراً من إخفاق النوبة في الإيفاء ببعض التزاماتهم بموجب شروط البقط، وفي نفس الوقت محتجاً ومتظلماً من انتهاك البلميين في مقاطعة أسوان. ومهما كان، فإن هذه الاتفاقية حفظت العلاقات بين بلاد المسلمين وبلاد النوبة المسيحية لفترة ستة قرون. (١٢١)

خاتمة

تعرضنا في الصفحات السابقة إلى البدايات الأولى للمقدرة والكفاءة الحربية التي ظهرت إرهاصاتها عند الكوشيين في وقت مبكر من التاريخ، وكيف كان للجندي الكوشي دور في توحيد وجهي مصر العليا والسفلى وقيام نظام حكم الأسرات فيها، وبالتالي فقد لعبوا دوراً واضحاً في الحياة العسكرية والسياسية المصرية في هذا الوقت المبكر. لقد أردنا تسليط الضوء على هذا الجزء من التاريخ الكوشي كهدف رئيس في هذا البحث. لم ينقطع إسهام الجنود الكوشيين في حسم الصراعات العسكرية في مصر حتى خلال الفترات التي تحدث فيها اضطرابات بين الطرفين، مثلما حدث بعد توحيد مصر. فقد استمر تجنيد الميجاو وتعاظم دورهم في عصر الدولة المصرية الوسطى، وساهموا بصورة واضحة للعيان في وضع حد للخلافات التي نشبت بين الأسر المتصارعة على السلطة. إثر ذلك ازدادت أعدادهم وازداد أثرهم في الجيش المصري، ربما لأن أم الملك أمنمحات، مؤسس الأسرة الثانية عشرة، كانت كوشية؛ فقد قال عن نفسه بأنه ابن لامرأة من تاسيتي.

(١٢١) مصطفى محمد مسعد، مرجع سابق، ص ١١٥.

عندما تعرضت مصر لغزو الهكسوس لم يكن الجنود الكوشيون بمنأى عن الأحداث؛ فقد وقفوا إلى جانب المصريين حتى تمكنوا من دحر الغزاة من شمال الوادي. تواصل دور الجنود الكوشيين على أيام المملكة المصرية الحديثة، وظهرت شخصيات كوشية بارزة كان لها دور فعّال على مستوى الحياة السياسية والعسكرية، مثل القائد الكوشي بانحسي الذي عاصر الملك رعمسيس الحادي عشر. وعندما ضعفت المملكة المصرية الحديثة، ودخلت في فترة الإضمحلال الثالثة، وانتهى بها الأمر لتحكم من قبل الليبيين، هب ملوك الدولة التي تأسست في نبتة على إثر خروج المصريين – هبوا لإنقاذ تلك المملكة من أيدي هؤلاء الغاصبين الليبيين. فقاموا بغزو مصر وحكمها، وكونوا ما عرف في التاريخ بالأسرة الخامسة والعشرين، وعرفوا في العالم القديم بـ"ملوك مصر والسودان".

أصبح الكوشيون في تلك الفترة دولة عظمى تحكم وادي النيل شمالاً حتى الدلتا. تزامنت تلك الفترة مع ظهور آشور كدولة كبرى في الشرق، وظهر لهم أن هذه الدولة تشكل خطورة على مصالحهم ووجودهم في مصر، فدفعهم ربما الحذر منها ومحاولة إبعادها إلى الاصطدام بها، مما تسبب في ضياع سلطانهم ونفوذهم في مصر نهائياً. إن انسحاب الكوشيين من مصر تركها نهباً لحكامها المتصارعين. ولم يستقر الأمر كثيراً للأسرة السادسة والعشرين حتى وقعت في أيدي الفرس، ثم الإغريق فالرومان. وقد استعانت كل هذه الشعوب إبان حكمها لمصر، بطريق أو آخر، بالجنود الكوشيين الذين طبقت شهرتهم الحربية الآفاق في تلك العصور.

بمجئ القرن السابع الميلادي دخل العرب مصر فاتحين، ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى بدأت حملاتهم تشق طريقها إلى بلاد النوبة. واجه العرب الفاتحون بسالة نوبية لم تكن تخطر على بالهم، ولم تحسم المعارك بينهم وبين النوبيين. لذلك

اكتفوا بعقد مصالحة معهم تضمن لهم مسالمتهم والاستفادة منهم. هكذا ظل الجنود الكوشيون، منذ عصر ما قبل التاريخ حتى الفتح العربي لمصر، مؤثرين بصورة فعالة على مسرح الأحداث.